الدراسات الإفريقية في العالم العربي وفي الغرب: دراسة مقارنة

د. آدَمَ بَمْبا

أكاديمي وباحث - كوت ديفوار - أكاديمية الدراسات الإسلامية - جامعة مالايا، ماليزيا

للدراسات الإفريقية حيزٌ واسعٌ في نشاط البحث في الغرب (أوروبا وأمريكا)؛ ذلك لعلاقة تلك الدراسات المباشرة بمشروع الهيمنة والاحتواء الذي قامت (ولا تزال) عليه الدول الغربية. في هذا السياق؛ قد حاولت الدراسة الحالية تتبع نشأة الدراسات الإفريقية وتطوُّرها في الغرب، في فرنسا تحديداً، ورصدت حجم تلك الدراسات، وتحديد المحاور والقضايا الإفريقية التي يعنى بها الباحثون الأفريقانيون في الغرب. كما رصدت نشاط البحث في الدراسات الغربية في العالم العربي ومراكزها الشهيرة، مثل: كلية الدراسات الإفريقية العليا بالقاهرة، ومعهد الدراسات الإفريقية والآسيوية بالخرطوم. هذا، وقد حاولت الدراسة عقد مقارنة بين الغرب وبين العالم العربي في نشاط البحث في الدراسات الإفريقية، وقدّمت بعض المقترحات التي يؤمل منها أن تسمُوَ بالبحث في الدراسات الإفريقية في العالم العربي، وتزيد في جودتها وتأثيرها في التقارب بين إفريقيا وبين العالم العربي.

لقد نالت شؤون القارة الإفريقية وقضاياها اهتماماً بحثياً مكثفاً من لدُن الدول الغربية، واهتماماً مماثلاً لا بأس به في العالم العربي، وهي في الوقت الراهن من أخْصَب المجالات البحثية وأكثرها اكتنافاً

للمواقف والرُّؤى المتنازعة، خاصَّةً في ظل المتغيرات الكثيرة في شؤون القارة الإفريقية.

وقبل المضي؛ يمكن الاستئناسُ بما قدّمه الباحثُ ماوِيري Mawere من تعريفٍ للدراسات الإفريقية؛ إذ ذكر أنها تعني عامَّةً «دراسة إفريقيا، وبالتحديد: مجتمعاتها وثقافاتها»[١]، وهذا تعريفٌ جِدّ مختصر مركَّز، يقاربه تعريف الباحث بولنْ هونْتونْجي Paulin Huntundji عن الدراسات الإفريقية أنها تشير إلى «المجموع الكلي للمجالات العلمية التي تتخذ إفريقيا موضوعاً للدراسة»، فالكلمتان المفتاحيتان في تعريف «ماوِيري» (مجتمعاتها وثقافاتها)، يمكن إرجاعهما إلى «المجموع الكلي» الواردة عند «هونْتونْجي»؛ لنفهم من ذلك أن الدراسات الإفريقية تنحصر فحسب في مجال الدراسات الإنسانية والاجتماعية، وهذا المحدد ما أكده الباحث «بلارينْ» (٢٠١٦)؛ باستبعاده الدراسات الجغرافية والجيولوجية والنباتية - مثلاً- عن دائرة الدراسات الإفريقية، وحصره إياها في الدراسات المجتمعية، مثل: الدراسات الثقافية، والأنثروبولوجية، والفلسفية، والتاريخ، والسياسة، والاقتصاد، والتنمية، والاجتماع، والدراسات السكانية، والإثنوغرافية، واللغات المحلية، والديانات، والآداب وغيرها[٢]. ويُطلق على أصحاب الاختصاص في أي من المجالات البحثية المذكورة: «أفريقانيي» Africanists؛ أي «مُستفرقون».

تجدر الإشارة إلى أن الباحثين يؤكدون أنه ليس كافياً أن تكون إفريقيا «موضوعاً للدراسة»، وإنما يشترطون في البحث العلمي، في المجالات المذكورة وغيرها، مقدرته على توظيف الطُّرق الأبستمولوجية،

إن للدراسات الفرنسية والغربية تأثيراً طاغياً على إفريقيا ومجتمعاتها، بخلاف الدراسات العربية

والنظريات العلمية التي تجعل «الطريقة الإفريقية للمعرفة» African Ways of Knowledge، في بؤرة الإجراء البحثي، وليس في هامشه. إن إخفاق البحث في الوفاء بهذا المعيار يجعل الدراسة الإفريقية «غير إفريقية»- بحسب تعبير الباحث «ماوِيري»؛ ينبغي أخذ نتائجها بكثيرٍ من الحيطة والشك[٣].

تجدر الإشارة مرّةً أخرى إلى أن هذا التضييق لمفهوم الدراسات الإفريقية؛ إنما هو من أجل الضَّبط والتحكُّم في المنهجية البحثية في هذا المجال، وإلاَّ فإن من المقرر عند الباحثين، أمثال أوسْبورنْ (Osborne, 2005)، أن جميع أفرُع العلم النظرية والتطبيقية: من أنثروبولوجيا، وطب، وعلم نبات، وجيولوجيا وغيرها... جميعها قد دخلت ضمن اهتمامات الباحثين الأفريقانيين، وصبَّت في الهدف الإمبريالي التسلطي؛ حيث إن الباحثين الأنثروبولوجيين والطبيعيين في إفريقيا، كما يقرِّره ماكيت (Maquet, 1964)، «قد ساهموا في مختلف أزمانهم في دعم الأهداف السياسية والإمبريالية لبلادهم تجاه المجموعات التي قاموا بدراستها»[٤].

(١) Mawere et al. 2017. African Studies in the Academy, 5.

(٢) Marie-Pierre Ballarin, et al. 2016. Les йtudes africaines en France. Un йtat des lieux.

(٣) Mawere et al. Op. Cit., 7.

(٤) Lewis, Diane. “Anthropology and Colonialism”,

إشـــارةٌ ثالثةٌ أخيرة يصعُب المرور دون تسجيلها حـــول التعريفـــات الســـابقة، وهـــي أن قبولنا بهذه التعريفـــات إنما هو من باب التجوُّز؛ إذ هي تومئ إلى أن الدراســـات الإفريقية قد بدأت بالنشـــاط الغربي في الكتابة حول إفريقيا، والواقع أن جذور الدراسات الإفريقية ضاربةٌ فـــي العمق التاريخي، منذ الفترات الأولـــى من العلاقـــات الخجول بيـــن الأفارقة وبين العرب، فيما يُصطلح عليه بالتجارة الصَّامتة Silent Trade، التـــي حدثت- على الأرجـــح- في فترةٍ قبل الإســـلام أو بُعَيْده. فمن الظاهر أن علاقات التجار- الذين كانوا يأتون بالبضائع ويضعونها على الساحل، بالســـكان المحليين- الذين كانوا يضعون إلى جانب كل بضاعـــةٍ قيمتهـــا من التبر ثم يختفـــون، الظاهر أن هذه العلاقات قد تطـــوَّرت بعد تفكُّر من لدُن كلٍّ من الطرَفَين، و«دراســـة ومراقبة» لتصرُّفات الطرف الآخر وطبائعه. لولا هذا القَدْر من «الدراسة»؛ لظلت العلاقة بين العرب التجار وبين الأفارقة في صورتها البدائية واضمحلت.

إن استعراضنا لتأريخية تلك الدراسات الإفريقية، وبخاصةٍ تموقع العرب في خارطة تلك الدراسات، لهو المفتاح في الولوج إلى فَهْم أوســـع للعلاقات الأفرو- عربية، والعمل على ترشـــيدها، وما أحوجنا إلى ذلك في الوقت الراهن.

وسيشمل هذا الاســـتعراض سبعة محاور رئيسة، هي: ظهور الدراســـات الإفريقية وتطوُّرها؛ وحجمها؛ ونوعيتهـــا؛ وتأثيراتهـــا؛ وطبيعتهـــا من حيـــث القوة والضعف، مع التركيز على الحيز الفرنســـي؛ ومحاولة للمقارنـــة؛ وبعـــض المقترحات للســـمو بالبحث في الدراسات الإفريقية في العالم العربي.

CURRENT ANTHROPOLOGY, Vol.14, No.5, 582 602-1971, (583).

أولاً: الدراسات الإفريقية: الظُّهور والتطوُّر:

إذا كان الباحثون يؤرِّخون لبدايات النشاط البحثي في الدراسات الإفريقية بالعصر الاستعماري، وأن ذلك قد بدأ بما يُعرف بدراســـة المناطق Area Study، فإن البداية الحقيقية لهذا النشاط- بحسب التعريفات المســـوقة أعلاه- يمكن إرجاعها إلى عصر الكشوفات الجغرافية العظمى، وما تلاه من رحلاتٍ استكشـــافية في الداخل الإفريقي، وحملاتٍ تنصيرية. إن ما سجَّله الرحالة الأوائل حول إفريقيا وشعوبها، في تلك الفترة، يمثِّـــل المعالم الأولى التي ســـار على هداها الباحثون المتأخِّرون؛ على الرُّغم ممَّـــا ورد في مذكِّرات أولئك ودراساتهم من مآخذ جوهرية في المنهجية البحثية.

وتجاوُزاً عن تلك المرحلة؛ فإن من الإمكان تقسيم بدايات النشاط البحثي حول إفريقيا جغرافياً فيما بين أوروبا وأمريكا؛ بوصفهما أهمَّ فاعلَيْن في هذا المجال.

١) الدراسات الإفريقية لدى القوى الاستعمارية في أوروبا:

لقد بدأت الدراسات الإفريقية الأولى بأوروبا منذ عصر الكشـــوفات، ثم تطوَّرت في عصر الاســـتعمار، وتوســـعت توســـعاً هائلاً إلى ما هي عليه في العصر الراهن، مع بعض التفاوُت والخصوصيات عند كل دولةٍ من القوى الاستعمارية الأوروبية: (بريطانيا، وألمانيا، وفرنسا، والبرتغال، وإيطاليا، والنمسا).

- الدراسات الإفريقية في فرنسا:

ظهرت الدراسات الإفريقية بفرنسا بوصفها جزءاً من المشـــروع الإمبريالي برعايةٍ مباشـــرةٍ من الجهاز الاستعماري الفرنسي، وانخراطٍ مباشرٍ لكثيرٍ من قادة الاستعمار في البحوث الأنثروبولوجية بإفريقيا.

في هذا السياق؛ عُنيت فرنسا في المقام الأوَّل عنايةً شديدةً بالأنثروبولوجيا، وكان من أوائل مبادراتها إنشاء مدرسة الأنثروبولوجيا Ecole d'Anthropologie

بباريس (١٨٧٦م)، ومتحف تروكاديرو للسلالات Musee Ethnographique de Trocadero (١٨٧٨م)، وفي تلك الفترة، حتى الحرب العالمية، صدرت معظم البحوث الأنثروبولوجية على أيدي القواد والحكام الفرنسيين بمستعمرات فرنسا؛ أمثال: جوزيف فرانْسُوا كلوزيل الحاكم العام بإفريقيا الغربية الفرنسية (١٩١٥م)، وزميله موريس دولافوس مؤسس معهد السلالات العالمي بباريس (١٩٠١م).

أيضاً، ظهر في تلك الفترة حقلٌ دراسي باسم «الأدب الاستعماري» Litterature Coloniale، ومن أشهر رواده الكاتب الفرنسي رولاند ل. Roland Lebel (١٨٩٣-١٩٦٤م)، الذي صرح بالهدف الاستعماري لهذا المجال الأدبي في مقدمة مجموعة مختارة من الأدب الإفريقي؛ حيث قال: إنها «تتضمَّن قيمةً إثنوغرافية معبِّرة عن نفسيات الأعراق في المجال الاستعماري (وتلك) معرفة ملزمة لهيمنتنا»[(١)]، وسنرى أن هدف الهيمنة على الشُّعوب الإفريقية واحتوائها domination & assimilation: قد آذَن بظهور أعمالٍ أدبية كثيرة من جمع أمثالٍ شعبية، وحكايات، وقصص وخرافات، وأشعار، لمختلف شعوب إفريقيا.

هذا، ولم يكد مضمون الدراسات الفرنسية حول إفريقيا يتجاوز هذه الدائرة: الأنثروبولوجيا والآداب والفنون، وفي هذا الإطار كان تأسيس مدرسة ويليامْ بونْتي للفنون والآداب (عام ١٩٠٣م) بالسنغال، والسبب في ذلك واضحٌ، يكمُنُ في مقدرة الأنثروبولوجيا على فَهم الشعوب الإفريقية، وتمرير الأفكار الاحتوائية الإمبريالية، وتكريس الطُّروحات الغربية العنصرية حول إفريقيا، وتفريق شعوبها.

(١) Belinda, E. Jack. Francophone Literature: An Introductory Survey, Oxford University Press, 1996, 11.

ولا أدل على أن فرنسا لم تكن جادةً في إنتاج علوم حقيقية حول إفريقيا في تلك الفترة؛ من تأخير تأسيسِ مؤسسة علمية في هذا المجال؛ إذ لم يتحقَّق ذلك إلاَّ عام (١٩٣٠م)، بإنشاء جمعية الأفريقانيين. كما لم توجد قبل استقلال الدول الإفريقية جامعة بإفريقيا الفرنكفونية، ما عدا جامعة دكار السنغال، بخلاف الجامعات العديدة آنذاك في المستعمرات البريطانية بإفريقيا.

وقد مثل إنشاء جمعية الباحثين الأفريقانيين Societe des Africanistes (١٩٣١م) نقلةً نوعيةً في مشروع الدراسات الفرنسية بإفريقيا، بزعامة جورج بلانْديير Georges Balandier، مؤسس مركز البحوث الإفريقية Centre d›Etudes Africaines (ت.١٩٥٧م)، ونتيجةً لذلك؛ فقد ظهرت أسماء باحثين معاصرين كثيرين في الدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية أمثال: Pierre Alexandre (ت.١٩٩٤م)، و Henri Brunschwig (ت.١٩٨٩م)، و Germaine Dieterlen (ت.١٩٩٩م)، و Denise Paulme (ت.١٩٩٨م)، وPierre Gourou (ت.١٩٩٩م)، وكل هؤلاء من خريجي المدرسة العالية للدراسات الاجتماعية Ecole des Hautes Etudes en Sciences Sociales, EHESS (١٩٧٥م).

٢) الدراسات الإفريقية في الولايات المتحدة الأمريكية:

بدأت الدراسات الإفريقية- مؤسسياً- بأمريكا بإنشاء برنامج الدراسات الإفريقية بجامعة نورث ويسترن North-Western Unv عام (١٩٤٨م)، وآخر بجامعة بوستن (١٩٥٤م)، وما لبثت أنْ أُنشئت لها عشرات البرامج في مختلف الجامعات الأمريكية بحلول عام (١٩٥٨م)، وشكَّل تأسيس جمعية الدراسات الإفريقية African Studies Association (١٩٥٧م) مَعْلماً مميزاً في خارطة الدراسات الإفريقية

بأمريكا، والترويج لها في المؤسسات التعليمية العالية[١]. ومن المؤسسات المبكِّرة الرائدة: الجمعية التاريخية الأمريكية Amercan Historical Association, AHA. ومن المحطات المهمَّة أيضاً؛ إنشاء الكونجرس الدولي للباحثين الأفريقانيين International Congress of Africanists عام (١٩٦٠م)، وأسفَر ذلك عن انعقاد مؤتمر الكونجرس الأوَّل بمدينة أكرا عاصمة غانا، (ديسمبر ١٩٦٢م)، والثاني بداكار عاصمة السنغال (ديسمبر ١٩٦٧م).

هذا، وقد جاء إنشاء برنامج الدراسات الإفريقية بالجامعات الأمريكية؛ نتيجة للاحتجاجات العامَّة من لدُن حركات طلبة الجامعات ذوي الأصول الإفريقية بأمريكا ومؤيديهم للمطالبة بتحرير التعليم الأمريكي من المركزية الأوروبية، وضرورة جَعْل الدراسات الإفريقية في بؤرة المناهج التعليمية، والبحوث والتخصُّصات العلمية بأمريكا. وأكبر تلك الاحتجاجات ما حدَث بجامعة سانْ فرانسيسكو (١٩٦٨م)، وأسفرت عن إنشاء برنامج «دراسات السود» Black Studies، وفي غضون ثلاث سنوات أنشئ أكثر من (٥٠٠) برنامج لدراسات السود بالجامعات الأمريكية[٢].

نتيجةً لتطوُّر تلك الدراسات؛ فقد ظهر تعديلٌ في مفهوم الدراسات الإفريقية وتعريفها؛ إذ عُرفت بأنها: «مُجمل الدراسات المتعددة التخصُّصات والاهتمامات والمناهج في دراسة الشعوب الإفريقية وفَهْمها، ويشمل ذلك الشعوب الإفريقية في القارة الأم، وأفارقة الشتات في أمريكا وفي غيرها من القارات»، فهنا توسيعٌ لمفهوم «إفريقيا» التقليدي الذي كان يحصُرُ إفريقيا في الكتلة القارية المعروفة. كما أن المصطلح نفسه (أي: دراسات إفريقية/ دراسات السود Black Studies)، قد استُبدِل في معظم الدراسات؛ ليصبح «دراسات أفريقانا»[٣] Africana Studies.

وبحسب الباحث روجاسْ؛ فإن لدراسات أفريقانا فضلاً على مجال البحث العلمي بأمريكا؛ إذ آذَنَ ظهورُ دراسات أفريقانا بتقوية رباط البحث الأكاديمي بالمجتمع وبالالتزام المدني.. «لقد كانت دراسات أفريقانا أوَّل المجالات الأكاديمية التي تحدت الطبقية الاجتماعية، ووسعت نطاق البحث الأكاديمي، فما إنْ ظهرت دراساتُ أفريقانا؛ حتى تبعتها - في الظهور- دراسات الإثنيات، ودراسات المرأة»[٤].

وإذا كانت الدراسات الإفريقية قد ظهرت بأمريكا في فترةٍ متأخِّرة نسبياً عنها في أوروبا؛ فإن مما يميز الظرف الأمريكي سرعة تنامي هذا المجال البحثي كَمّاً وكَيْفاً.

على سبيل المثال، في عام (١٩٦٦م)، وُجد أكثر من ألف طالب بمرحلة الدكتوراه وحدها بأمريكا، بينما لم يكن عدد رسائل الدكتوراه في عقد الستينيات (١٩٥١-١٩٦٠م) يتجاوز (٤٩) رسالة، أمَّا في السنة الجامعية (٢٠٠٠/٢٠٠١م) فقد وُجِد أن عدد رسائل الدكتوراه المجازة بالجامعات الأمريكية في الدراسات الإفريقية قد بلغ (٥٢٩) رسالة[٥]. كما تجاوز عدد المراكز الأكاديمية المتخصِّصة في الدراسات الإفريقية بالولايات المتحدة (عام٢٠٠٢م) السبعين[٦]،

(١) http://www.africanastudies.org

(٢) Zeleza P. Tiyambe. 2011. "Building intellectual bridges...", AFRIKA FOCUS, 24(2), 9-31(15).

(٣) William G. Martin. 2011. "The Rise of African Studies (USA)", African Studies Review, Vol. 54(1), 59-83.

(٤) Roja, 2007. From Black Power to Black Studies: How a Radical Social Movment Became an Academic Discipline, 93-94.

(٥) Roquinaldo, F. 2010. "The institutinalization of African Studies...", RBH, Vol.30(59), 71-88(72).

(٦) Roquinaldo F., Ibid., 72. 5

هـذا ناهيك عـن المراكز المسـتقلة، والهيئات غير الأكاديمية.

هـذا، ويعود نشـوء الدراسـات الإفريقيـة بالجامعات الأمريكية وسرعة تناميها إلى عدة عوامل، منها:

- انخـراط المؤسسات الأهلية القوي في دعم برامج الدراسات الإفريقية:

وعلـى رأس تلك المؤسسـات مجموعـة فوردْ وكارنيجي؛ إذ وفَّرتَا المنح الدراسـية للطلبة، ودعمت عقـد المؤتمـرات، وتوظيـف الأسـاتذة[١]، وبلغ ما خصَّصته مؤسسـة فوردْ للدراسـات الإفريقية، حتى نهايـة عـام (١٩٧٠م)، حوالي عشـرين مليون دولار أمريكـي. وموَّلت مجموع (٢٠٥٠) رسـالة دكتوراه في العلوم الإنسانية والاجتماعية حول إفريقيا بأمريكا[٢].

- تنامي حركات الحقوق المدنية:

تعود سرعة تنامي الدراسـات الإفريقية بأمريكا أيضاً إلى صعود حركات الحقوق المدنية لدى الأفارقة الأمريكيين، وكان كثيرٌ من زعماء تلك الحركات ودُعاتها أكاديميين بالجامعات التـي كانت توصَف بالجامعات الخاضعة تاريخياً لنفوذ السود Historically Black Colleges & Universities, HBCUs، بمقابـل الجامعات الخاضعة لنفوذ البيض HWHs.

عليـه؛ فقد أفضَـت جهـودُ أولئك إلـى إدراج الدراسـات الإفريقيـة في عمق كثيرٍ مـن الجامعات الأمريكية؛ لكوْن ذلك صورةً من صُوَر نضال السود في تحقيق المساواة[٣].

ثانياً: حجم الدراسات الإفريقية:

يرتبـط حجـم الدراسـات الإفريقيـة بتاريخ المؤسسـات والهيئـات الأكاديمية بأوروبـا وأمريكا المشـار إليها في الفقرات السـابقة، ويعني ذلك أن رصد مجموع ما أنتجه الأفراد والمؤسسـات البحثية، على مـرِّ تاريخ البحث في الدراسـات الإفريقية، قد يكون من شبه المستحيل، ويؤكد ذلك ضخامة فهارس المكتبات المتخصِّصة في رصد الدراسات الإفريقية، وكثرة المؤسسات الأكاديمية المتخصِّصة.

أ- الدوريات والمجلات العلمية:

إن نتاج المراكز البحثية والمؤسسـات الأكاديمية في نشر البحوث العلمية لَنِتاجٌ هائلٌ، فمن الجامعات ما أنتجت مئات البحوث الجامعية، وإلاَّ فالآلاف، بمرحلتَيْ الماجسـتير والدكتوراه، وأصـدرت مئات الأعداد من الدوريات المتخصِّصة، والمقالات والبحوث العلمية.

مثلاً في فرنسـا: مجلـة الدراسـات الإفريقية Cahiers d'Etudes Africaines (١٩٦٠م)، أسسـها جورج بلاندييه George Balendier, d. (٢٠١٦م)، وهي منذ إنشائها، حتى الآن، لا تزال تنشر عشرات البحوث في كل إصدارٍ من إصداراتها. ومجلة إفريقيا المعاصـرة Afrique Contemporaine (١٩٦٢م).

وفي دراسـة تحليلية إلكترونية، أجرَتها مجموعة GIS (٢٠١٦م) علـى محتـوى أربعين مجلة فرنسـية جامعة، فيما بين (١٩٦٠-٢٠١٣م)، تبين أن كلمة البحث «إفريقيـا» Afrique قد ظهرت في عناوين (٤,٩٤١) بحثاً منشوراً، هذا بصرف النظر عن المقالات الكثيرة الأخرى عـن إفريقيا التي لا تتضمَّـنُ عناوينها كلمة «إفريقيا»[٤].

أمَّا عن المجـلات المتخصِّصة في الدراسـات الإفريقيـة؛ فقد جردت الدراسـة المذكـورة محتوى

(١) Brizuela, 128. Brizuele-Garcia. 2004.African Historiography, 73.

(٢) Roquinaldo F., Op. Cit., 74.

(٣) Ibid., Revista, 75.

(٤) Marie-Pierre B., et al. Les ётudes africaines en France, 73.

سبع من أبرزها في الفترة المذكورة؛ فكانت الحصيلة (٣,٩١٩) بحثاً علمياً[١].

وفي رصدٍ لتنامي الدرسات الإفريقية بفرنسا في مجال الرسائل الجامعية، عدّ الباحث روبْ مجموع (٦,٥٠٠) رسالة دكتوراه عام (١٩٧٩م)، ووجد من بينها (٦٠٠) رسالة مخصَّصة لإفريقيا، أي بنسبة (٩٪)، بينما لم يكن عدد الرسائل الجامعية يتجاوز (١٥٠) عام (١٩٦٤-١٩٦٥م)[٢].

كذلك، في مشروع بحثي Afritheses لرصد البحوث الجامعية عن إفريقيا فيما بين (١٩٦٠-٢٠١٣م)، وآخر حول البحوث المنشورة بمجلاَّت علمية في الفترة نفسها، وُجد أن عدد الرسائل العلمية، في عقدَي الستينيات والسبعينيات، كان في حدود عشر رسائل كل عام، ثم ارتفعت النسبة إلى المئات، وفي فترة (١٩٨٥-١٩٨٩م) بلغ عددها (٢,٥٦٣)، وبعد ذلك لم يقل عدد الرسائل الجامعية عن إفريقيا عن (٤٠٠) كل عام.

وبطبيعة الحال؛ فإن النشر العلمي في الدراسات الإفريقية ببريطانيا. أقدَمُ منه في غيرها من الدول الاستعمارية، ومن مجلاتها: مجلة شؤون إفريقية African Affairs (١٩٠١م)، ومجلة أفريقيا Africa (١٩٢٨م). كما تُعد مجلة التاريخ الإفريقي Journal of African History, JHA، التي تأسست عام (١٩٦٠م) بجامعة كمبردج، أهمَّ مجلة في مجالها، أسسها المؤرِّخان الرائدان: جون ف. John Fage (ت.٢٠٠٢م)، ورونالد أ. Ronald Oliver (ت.٢٠١٤م).

ومن أوائل الدوريات الأمريكية مجلة إفريقيا اليوم Africa Today (١٩٥٤م) بنيويورك، وتقارير إفريقيا Africa Reports (١٩٥٦م) بواشنطن.

ب- المراكز والمؤسسات الأكاديمية:

لقد شهد تأسيس المراكز الأكاديمية والهيئات المتخصِّصة في الدراسات الإفريقية تنامياً مُطرداً في أوروبا وأمريكا على السواء. ففي فرنسا أكثر من (٧٠) سبعين مؤسسة ومركزاً للدراسات الإفريقية المستقلة أو الملحقة بالجامعات والمؤسسات التعليمية العالية. وفي بريطانيا أكثر من مائة مؤسسة للدراسات الإفريقية، أشهرها: مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية The School of Oriental and African Studies, SOAS، أُنشئت عام (١٩١٦، ١٩٣٨م) بجامعة لندن. أمَّا في ألمانيا فإن من أبرز مراكزها المتخصِّصة في الدراسات الإفريقية: the German-African Society، ومعهد فروبنيوس The Frobenius Institute of Frankfurt University، والمعهد الإثنوغرافي The Institute of Ethnography of the University of Munich.

وأمَّا في أمريكا؛ فإن عدد مراكزها الأكاديمية يفوق المائة بكثير، وتُعد جامعة ولاية كنساس- بهذا الصَّدد- أشهر مؤسسةٍ أكاديمية في الدراسات الأفريقانية، وتتميز الدراسات فيها بالمنهج التعددي في طُرُق البحث والمجالات البحثية، كدراسات المهاجرين وأفارقة الشتات، والثقافة، والتاريخ، والأديان، والفنون، ودراسات المرأة و«الجَنْدَر»، والصِّحة، والاقتصاد، والسياسة، وغيرها من المجالات البحثية حول إفريقيا[٣].

باختصارٍ؛ لا تكاد دولةٌ أوروبية تخلو من عشرات

(١) Ibid., 96.

(٢) Rupp, Britta. 1979. "La situation historique des etudes africaines", Journal des africainstes, 49(1), 136-tome (139).

(٣) Edward A. A. and Allen F. Roberts. 2002. "What is African Studies? Some Reflections". African Issues, Vol.30(2), 11-18.

المراكز أو المؤسسات التعليمية المعْنية بالدراسات الإفريقية، وقد تبوَّأ الكثيرُ منها شهرةً عالمية بمخرجاتها من الطلبة والباحثين والأساتذة، والبحوث العلمية، والمؤتمرات والندوات.

ج – الدراسات الإفريقية في الدول العربية:

يوجد بالدول العربية الحديثة عددٌ من المؤسسات الأكاديمية المتخصِّصة بالدراسات الإفريقية، وقد نشأت تلك المؤسسات في ظل التقارب الإفريقي العربي من لدُن القادة الرُّواد أمثال: جمال عبد الناصر، وكوامي نْكروما، والحاج أحمد سيكو توري.

١- كلية الدراسات الإفريقية العليا بجامعة القاهرة:

يُعد معهد البحوث والدراسات الإفريقية- بحسب علمنا- أقدَم مؤسسةٍ أكاديمية عربية في مجال الدراسات الإفريقية؛ حيث أنشئ منذ عام (١٩٤٧م) باسم «معهد الدراسات السودانية»، ثم تغير اسمه (عام ١٩٥٤م) إلى «معهد الدراسات الإفريقية»، وذلك بعد انفصاله عن كلية الآداب، ثم إلى معهد للدراسات العليا عام (١٩٧٠م)[١]، وفي عام (٢٠١٨م) صدر قرار رئاسي بتحويل الفرع الخاص بجامعة القاهرة؛ ليصبح اسمه «كلية الدراسات الإفريقية العليا».

يختصُّ هذا المعهد بالدراسات العليا بجامعة القاهرة، ويهدف إلى تعميق المعرفة بالشُّؤون الإفريقية، والقيام بالبحوث والدراسات الخاصَّة بالقارة الإفريقية ونشرها. كما يُعنى بتكوين الباحثين والمتخصِّصين في شؤون القارة، ودعم العلاقات المصرية والعربية مع إفريقيا وتوثيقها. ويضمُّ منذ (١٩٧٠م) أربعة أقسام إضافية، هي: النُّظم السياسية والاقتصادية؛ الأنثروبولوجيا؛ اللغات الإفريقية؛ الموارد الطبيعية، على القسمَين السابقَين: الجغرافيا؛ التاريخ.

(١) http://www.ar.m.wikepedia.org/wiki/ -Retrieved 27 :2021/8/on.

لقد شهد تأسيس المراكز الأكاديمية والهيئات المتخصِّصة في الدراسات الإفريقية تنامياً مُطرداً في أوروبا وأمريكا على السواء

ومن الكُتُب المهمَّة التي أصدرها معهد البحوث (بالقاهرة): سلسلة من الموسوعات حول إفريقيا: في الجغرافيا، واللغات، والأنثروبولوجيا، والسياسة والاقتصاد.

هذا، وإن ما يميز كلية الدراسات بالقاهرة توفُّر برنامج تخصُّص جامعي بها في الدراسات الإفريقية، وتلك ميزةٌ لا تتوفَّر إلاَّ بجامعاتٍ معدودة بأمريكا، منها: جامعة هوَارد، وروتجيرسْ Rutgers، وميشيجانْ، وكلية بيلوَات Beloit College، فهي توفِّر برامج التخصُّص الفرعي في الدراسات الإفريقية.

٢- معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية بالسودان، ومعهد الخرطوم الدولي:

معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية بجامعة الخرطوم، به قسم اللغات الإفريقية، يُصدر هذا المعهد مجلة الدراسات العربية الإفريقية، وهي مجلة علمية نشرت الكثير من البحوث في التاريخ واللغات الإفريقية، والموضوعات الاجتماعية.

أمَّا معهد الخرطوم الدوَلي (١٩٧٤م)؛ فإن له جهوداً كبيرةً في تعليم اللغة العربية، وفي تدريب المعلمين الاختصاصيين، وإجراء البحوث والدراسات العلمية، كما يوفِّر مساقاتٍ في برنامج

الدبلوم، والماجستير، والدكتوراه.

٣- معهد الدراسات الإفريقية بجامعة محمد الخامس الرِّباط[١]:

أنشئ هذا المعهد عام (١٩٩٠م)، بأمرٍ ملكي لملك المغرب محمد الخامس، وأنشطته:

- تشجيع البحوث حول إفريقيا في مجال الدراسات الإنسانية والاجتماعية.

- عقد ندوات ومؤتمرات ومعارض بمشاركة الباحثين والمؤسسات التعليمية والبحثية ذوات الاهتمام بالقضايا الإفريقية.

- عقد علاقات تعاون مع الهيئات الوطنية والدولية ذوات الاهتمام المشترك.

— تقوية علاقات المغرب بالدول الإفريقية الأخرى في المجالات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والإنسانية.

هذا بالإضافة إلى مراكز أخرى في الجزائر، والعراق وغيرهما، وبعض البرامج في الجامعات العربية.

أمَّا الملاحظ هنا؛ فهو تأخُّر ظهور المؤسسات الأكاديمية العربية عنها في الغرب، وتلك نتيجةٌ طبيعية لظهور المؤسسات التعليمية الحديثة من جامعات ومعاهد بالعالم العربي أو غيرها من المجتمعات غير الغربية، فجامعة القاهرة مثلاً أُنشئت عام (١٩٠٨م)، وجامعة الخرطوم (عام ١٩٥١م)، وجامعة محمد الخامس (١٩٥٧م)، فمن الطبيعي- إذاً- أن يتأخر ظهور المعاهد والأقسام الخاصة الملحقة بتلك الجامعات. ثمَّ إن الدوافع والأهداف المباشرة للنشاط البحثي حول إفريقيا من لدُن القوى الاستعمارية؛ تختلف عنها لدى الدول العربية الحديثة، فالتأخر النِّسبي- إذاً- طبيعي.

ثالثاً: نوعية الدراسات ومضامينها:

لقد اصطبغت نوعية الدراسات الغربية والأمريكية بالظرف الذي كان قادحاً لظهور الدراسات الإفريقية، وهو الظرف الاستعماري، والهدف الاحتوائي؛ لذلك فإن الدراسات والبحوث الأولى قد انصبَّت في الأنثروبولوجيا، وهي التي وُصِفَت بأنها وليدةُ الإمبريالية The child of Imperialism، وأنها «أداة للهيمنة»[٢] tool of dominance، عملت دائماً لتأمين سيطرة المستعْمِر وخدمة أهدافه[٣]، يدل على ذلك مثلاً العلاقة المباشرة بين كثيرٍ من الباحثين الأنثروبولوجيين والجهاز الاستعماري، إمَّا ضُباطاً وقُوَّادَ جيوش، أو إداريين، من أشْهَر أولئك: هنريث H. Barth (ت.١٨٦٥م)، وليفينغستون David Livington (ت.١٨٧٣م)، وستانلي Henry Morton Stanley (ت.١٩٠٤م)، وبرازا Pierre Savorgan de Brazza (ت.١٩٠٥م)، وغالييني Joseph Gallieni (ت.١٩١٦م)، و L. Frobenius, (ت.١٩٣٨)، و B. Malinowski, (. ت١٩٤٢)، وغيرهم كثير.

حتى في الوقت الحاضر؛ فإن الباحث مسيِّندو يصرِّح في شأن مدرسة SOAS أنها: «قد كُيِّفت استراتيجياً لدعم المصالح البريطانية الإمبريالية»[٤]،

(١) http://www.tawjihpress.com/ - Retrieved on: 2021/8/27.

(٢) Istvбn Tarrysy, L. Szaby, G. Hydйn (ed). 2011. The African State in a Changing Global Context, 191.

(٣) Ginio, ruth. "French Colonial Reading of Ethnographic Research…", Etudes Africaines, 357-1000, XLII-2, 2002, 337.

(٤) Msindo, E. 2020. "African Studies and its Configurations", Keynote at a Workshop on Reconfiguring African Studies, Moi Unv., 3-Kenya. 2.

وأن مكتب الاستخبارات الأمريكية CIA قد موَّلت سرّياً بعض المراكز والمؤسسات المتخصِّصة بالدراسات الإفريقية، وأورد في ذلك جملةً في خطابٍ موجَّه من مدير جمعية الأفريقانيين بأمريكا ASA إلى رئيس الاستخبارات؛ يؤكِّد فيه أن الجمعية وشبكة باحثيها سيبذلون ما في وُسعهم لخدمة رئيس الاستخبارات[1].

عليه؛ فإن مضمون الدراسات الإفريقية في مراحلها الأولى كان في عامَّته مضموناً استعمارياً يغلب عليه الطابع الأنثروبولوجي، وبعد الاستقلال السياسي؛ انصرفت اهتمامات الباحثين إلى القضايا الاقتصادية والسياسية وتاريخ الممالك الإفريقية.

أمَّا في الوقت الراهن؛ فإن الدراسات الإفريقية تتصف بالتشعُّب وتداخُل مجالاتها، وتنحو منحًى تعددياً في منهجيتها البحثية، وموضوعاتها المطروقة، أي أنها تجمع بين علوم عدة في البحث، وتتطرق إلى مجالات الصِّحة والأوبئة، وقضايا الهجرة، والحركات الدينية الحديثة، وقضايا الديمقراطية، والفكر السياسي في المجتمعات الإفريقية.

وقد تباينت الدول الأوروبية في دراساتها الإفريقية كلٌّ على حِدة؛ وعليه فإن الباحثين يحاولون استخلاص خصائص تميّز مضمون دراسات كل دولة عن سواها، فالمدرسة الفرنسية مثلاً كرست جهودها في البحوث الإثنوغرافية والأدبية، كما عُنيت بالدراسات الاجتماعية والثقافية، ومن رُوَّاد هذا الاتجاه: بلانْدِيير G. Balandier، وميرسيهْ P. Mercier، و R. Dumont.

وأمَّا المدرسة البريطانية؛ فإنها بخلاف الفرنسيين، قد عُنِيت بالقضايا التاريخية والسياسية، وكان من روَّاد هذا الاتجاه: E. Evans-Pritchard، و M. Gluckman، وA. Richards، و J. Fage، و R. Oliver، و T. Hodgkin.

وأمَّا المدرسة الأمريكية؛ فإنها قد احتضنت تقريباً جميع الاتجاهات المذكورة حول الدراسات الإفريقية بأوروبا؛ لكنْ يمكن أيضاً القول إن المدرسة الأمريكية قد ركَّزت اهتمامها في القضايا السياسية قديماً وحديثاً، وهي عنايةٌ وثيقة العلاقة بالسياق الأمريكي، وسياق نُموِّ الدراسات الإفريقية في المجتمع الأمريكي؛ حيث اصطبغت الدراسات الإفريقية بالصِّراع المتوارث بين البيض والسود الأمريكيين، وكان هذا الصِّراع يتمظْهَر أكثَر ما يتمَظْهَرُ في المعترك السياسي، والمطالبة بالمساواة الاجتماعية، والحقوق المدَنية.

هذا، ويعد عقد (١٩٧٠-١٩٨٠م) نقطة تحوُّل جذري في مضمون الدراسات الإفريقية؛ حيث ظهرت فيها قضايا وموضوعات جديدة: كالبيئة، والحياة البرية، والمرأة، والصِّحة، وقضايا السلطة والحكم بالدول الحديثة، والحروب الأهلية، والهجرة، وتحديات حياة الحضَر بمقابل القرى، والبطالة، وغيرها.

وعلى العكس من فرنسا وسائر الأقطار الأوروبية؛ فإن الباحثين العرب - قديماً وحديثاً- قد عُنوا أكثر ما عُنوا بالتاريخ الإفريقي، وإبراز الإسهام الإسلامي فيه، فَعالَم الدراسات التاريخية مدينٌ للجغرافيين والمؤرِّخين بالعربية في وضع الكُتُب الأصول في التاريخ الإسلامي، ذلك منذ الخوارزمي (ت. حوالي ٢٣٥هـ/٨٤٩م)، والإدريسي (ت.٤٧٥هـ/١٠٨٢م)، والبكري (ت.٤٧٥هـ/١٠٨٢م)، وابن خلدون (ت.٨٠٨هـ/١٤٠٦م)، وابن المختار كعت (ت. بعد ١٠٠٢هـ/١٥٩٣م)، والسعدي (ت.١٠٦٦هـ/١٦٥٥م).

بمتابعة معاهد الدراسات الإفريقية العربية الحديثة؛ نجد أن دراسة التاريخ تحوز نصيب الأسد في برامجها وتخصُّصاتها، وتخصُّص الأساتذة والباحثين المرتبطين بها، وبحوثها وكُتُبها المنشورة. كما نجد أن باحثين مؤرِّخين عرب معاصرين قد أضافوا لبناتٍ

(١) Ibid, 5.

متينةً في صرح البحث التاريخي بإفريقيا.

رابعا: تأثير الدراسات ونتائجها:

يمكن الجزم بأن تأثير الدراسات الإفريقية ونتائجها كان، ولا يزال، عميقاً وخطيراً في الواقع الإفريقي، سلباً وإيجاباً، فهي في الماضي قد اضطلعت بمهمة إمداد الإمبرياليين بالمعرفة التامة بطبيعة الأفارقة، وبنقاط القوة والضعف في الشعوب الإفريقية، وطرق استغلال تلك النقاط في التحكم فيها. وبقدْر ما نُهبت الموارد الأولية الخام بإفريقيا؛ فإن خبراتها المعرفية، وعناصرها الثقافية، وحقوقها الفكرية، قد نُهِبَت وصودِرَت في ظل ما أسْماه الباحث غالْتونْغ Galtung بكولونيالية علمية[1] Scientific Colonialism.

هذا، ومن الإنصاف الإشادة بأفضال كثير من البحوث الغربية على إفريقيا؛ إذ قد كرّس كثيرٌ من الأفريقانيين حياتهم لخدمة العلم والبحث بإفريقيا، وساهمَت بحوثُهم في تقدم المجتمع الإفريقي وتطويره في العصر الراهن.

خامساً: القوة والضعف:

من نقاط القوة والضعف في الدراسات الإفريقية- بفرنسا خاصَّة:

١- غلبة الدراسات الأنثروبولوجية:

برع الفرنسيون- كمّاً وكَيْفاً- في الدراسات الأنثروبولوجية بإفريقيا، خاصَّة في جانب الدراسات الإثنوغرافية، وكان للمتحف الإثنوغرافي الذي أسسه جول فيري (Jules Ferry. ١٨٩٣) عام (١٨٨٠م)، أثرٌ محوري في هذا المجال. وقد كان لهذا الاهتمام بالأنثروبولوجيا علاقة مباشرة بالهدف الاستعماري والاحتوائي للشعوب الإفريقية.

بالمقابل؛ نجد أن الاهتمام البحثي بالتاريخ الإفريقي كان ضعيفاً، وذلك لقلة مبالاة الباحثين الفرنسيين بالمصادر الشفهية، وقلة المصادر المكتوبة أو الأركيولوجية بإفريقيا؛ لذلك لم تتجاوز اهتماماتُ الباحثين الفرنسيين مجال المصريات التي كانوا يعتبرونها امتداداً للحضارة المتوسطية. بل إن بعض الأنثروبولوجيين المتشرِّبين للرُّؤية المركزية الأوروبية المفرطة Eurocentrism؛ كانوا يعتقدون أن إفريقيا لا تاريخ لها البتة! وإنْ وُجِد شيءٌ من التاريخ فمرُّده إلى أصولٍ خارجية وافدة إلى إفريقيا.

وبتعبير الباحث «بلارينْ»؛ فإن نشاط التأريخ لإفريقيا بفرنسا ضئيلٌ جداً، خاصةً بالجامعات، فلا يتجاوز الأساتذة بالدراسات العالية والباحثين بالمؤسسات التعليمية الرائدة بفرنسا العشرين[2].

عليه؛ لم يتشكَّل الاهتمام البحثي الأكاديمي بالتاريخ الإفريقي إلا بعد استقلال الدوَل الإفريقية، فمثلاً لم يبدأ تدريس تاريخ إفريقيا بجامعة سوربون إلاَّ عام (١٩٧٤م)، على يد الأستاذة فرانسواز Francoise Raison في تاريخ مدغشقر وشعوب المحيط الهندي.

وحتى هذا الاهتمام الفرنسي بالتاريخ الإفريقي؛ كان جلّه انتقائياً ومحل الكثير من الصُّور النمطية السلبية، والمغالطات المتعمَّدة، والادعاءات، من أجل خدمة المصلحة الفرنسية الاستعمارية، وهنا كان الاهتمام بقضايا تجارة الرقيق، وتضخيم مسؤولية العرب والأفارقة فيها، والتقسيم الإثني للمجتمعات الإفريقية، والزَّعم بأن القارة الإفريقية عاشت بمَعزَل عن القارات الأخرى قبل الاستعمار، والتركيز على تقسيمها إلى أبيض وأسْوَد.

من مظاهر الضَّعف أيضاً في الدراسات الفرنسية:

(١) Galtung, Johan. Theory and Methods of Social Research, Columbia University Press, 1967, 296.

(٢) Ibid., 32.

٢- الضَّعف المنهجي:

ويتمثل ذلك في أن الدراسات الفرنسية لا تُوظِّف المنهج التعددي على غرار المدرسة الأمريكية مثلاً، فهي لا تربط بين التاريخ وبين نتائج الدراسات الأثرية والحفريات وعلم النبات الإثني. ولا شكَّ في أن هذا القصور المنهجي يؤثِّر في نتائج الدراسات الفرنسية، فلابد من الجمع بين العلوم المذكورة وبين المجالات البحثية الأخرى؛ من أجل الخروج بنتائج أكثر مصداقية حول التاريخ الإفريقي القديم.. «إن هذا الإجراء لم يُعدّ يطبَّق بفرنسا، وإنما بألمانيا، وبريطانيا، والولايات المتحدة، وأستراليا»، بتعبير الباحثين في مشروع مسح الدراسات الإفريقية GIS [١].

٣- الانطوائية:

من نقاط الضعف في الدراسات الفرنسية حول إفريقيا- ما يمكن تسميته بالانطوائية، وهي تضييق حدود البحوث وتمركزها حول «إفريقيا: الفرنكفونية»، فقلما نجد دراساتٍ فرنسية حول المجتمعات الإفريقية خارج النِّطاق الفرنسي، وذلك طابعٌ متلبِّسٌ بالثقافة الفرنسية، ونظام التعليم والبحث الفرنسي؛ إذ قلما تتسع حدودها لاحتواء ثقافاتٍ أخرى. إنها رؤيةٌ مركزية فرنسية داخل الرُّؤية المركزية الأوروبية.

٤- تراجُع البحث الفرنسي في الدراسات الإفريقية مقارنةً بنظائره من البحوث الغربية والأمريكية:

وهذا التراجُع مُشاهَدٌ في جميع المجالات في التاريخ والأنثروبولوجيا والاجتماع، وغيرها. وطبقاً للباحث بلارينْ وزملائه؛ فإن «مدرسة فرنسا» قد اضمحلت تدريجياً منذ حقبة (١٩٨٠م) في وجه النشاط الأمريكي في الدراسات الإفريقية[٢]. ووُجِد في مجال التاريخ- مثلاً- أن جامعات باريس١، وباريس٧، وجامعة AMU، هذه الثلاث فحسب، هي التي توفِّر برنامجاً مكتملاً نسبياً في الدراسات التاريخية الإفريقية، من الليسانس حتى الدكتوراه[٣].

كذلك في مجال النشر، في التاريخ خاصَّة، فإن الدوريات العلمية الفرنسية قليلةٌ تُعد على أصابع اليد، بل لا توجد مجلة علمية حالية متخصِّصة في الدراسات التاريخية، وإنما يلجأ الباحثون المؤرِّخون إلى النشر في مجلاَّت جامعة متعددة المجالات، مثل[٤]: Politique Africaine، و Afrique Contemporaine، و Cahier d›Etudes Africaines، وLe Journal des Africanistes

٥- ضعف الموضوعية:

من الإشكالات التي شابت- ولا تزال تشوب- بعض الدراسات الفرنسية والغربية، خاصَّة في المجالات الإنسانية والاجتماعية، قلة موضوعيتها، وغلبة المواقف المسبقة والأحكام العنصرية عليها، ويحدُث ذلك عادةً حين يكون البحث ذا هدفٍ سياسي واضح، وهنا يدعو الباحثون إلى ضرورة «إزالة الكولونيالية» decolonization، عن الدراسات الإفريقية، أو «إعادة الأفْرَقَة»[٥] re-Africanization إليها.

٦- الحاجز اللغوي:

تعاني الدراسات الإفريقية المكتوبة باللغة الفرنسية، مثل غيرها من مجموع المدوَّنة الفرنسية، من تهميشٍ يتسع نطاقه من يوم لآخر، وذلك في ظل طغيان اللغة الإنجليزية، والهَيْمَنَة السكسونية على العالم. على سبيل المثال؛ لا نجد في قائمة للمجلاَّت

(١) Marie-Pierre B., et al. Les йtudes africaines en France, 34.

(٢) Marie-Pierre Ballarin, et al. Les йtudes africaines en France, 14.

(٣) Ibid., 34.

(٤) Ibid., 35.

(٥) Ndlovu, Nationalism and National Projects in Southern Africa: New Critical Reflections.

الأكاديميـــة الأكثر تأثيـــراً في الدراســـات الإفريقية (عددهـــا ١٢٩)، إلاَّ ســـت مجلاَّت باللغة الفرنســـية فحسب، ولا شـــكَّ أن ذلك بسبب تقلص مساحة اللغة الفرنسية في وجه الإنجليزية.

سادساً: محاولة للمقارنة:

على الرُّغـــم من صعوبـــة المقارنة بين نشـــاط الدراســـات الإفريقية بالغرب وبالعالـــم العربي؛ فإن ذلك لا يمنع من تســـجيل بعض الانطباعات حول هذا النشاط، فالمقارنة صعبة؛ نظراً للاختلاف البيّن بين ظروف قيام الدراسات الإفريقية في الغرب، وبينها في العالم العربي، وفي الدوافع والأهداف، وفي الإمكانات المتاحة للغـــرب، وغير ذلك من المتغيـــرات المؤثِّرة مباشرةً في نشاط البحث.

فمن حيث النشأة:

سبقت الإشارة إلى أن العرب قد سبقوا الأوروبيين بقرونٍ في نشاط الدراسات الإفريقية، واختلفت دوافع هذا النشاط في العصر الراهن- تحديداً- بين الاثنين، فبينما هي دوافع إمبريالية واضحةٌ لدى الغرب؛ نجدها دوافع تقارُب ومصالح مشتركة عند العرب.

ومن حيث حجم الدراسات:

نجد أن حجم الدراسات في فرنسا وحدها (من بحوث، وأطُر بشـــرية، ومراكز...) أكبر من حجمهـــا في الـــدول العرَبية قاطبـــة، ولا وجهَ للمقارنـــة بين الاثنيـــن. غير أن هـــذه النظرة الســـطحية مضللة قائمة على مغالطة واضحة، فالعالم العربي نفســـه قد خضع معظمُ أقطاره للاستعمار الفرنسي. كما شـــكَّل العالم العربي جزءاً كبيراً من الدراسات الإفريقية التي أنجزتها فرنسا (الشمال الإفريقي). ثم إن الحقَّ المشاع الذي لا تزالُ فرنسا تُخوِّله لنفسها في التصرُّف المطلـــق في مصادر المعلومـــات الإفريقية؛ لم يتهيأ مثله لدُوَل العالـــم العربي؛ فالمقارنةُ بين الاثنين- إذاً- قد لا تكون صادقة.

ومن حيث نوعية الدراسات:

نجد أن هدف الهيمنة لدى فرنســـا والغرب قد انْطبَعَ مباشـــرةً على نوعية دراســـاتها؛ فجاء جلها في أيامها الأولى في مجال الأنثروبولوجيا، وشُـــحن مضمون الدراســـات بالكثير من المعلومات المضللة (عن عَمْد) حول الشعوب الإفريقية، وحقائق القارة. وفي السياق العربي؛ نجد أن مضامين دراسات العرب قـــد غلب عليها الطابع التاريخي؛ لكن كثيراً منها قد انزلق في تكرار صُوَرٍ نمطية جدّ سلبية حول إفريقيا، مثل الدمشقي (شـــمس الدين، ت.٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، وحتى المـــؤرِّخ الاجتماعي ابن خلـــدون في «نظرية الأقاليم السبعة»، ووضْعه السودان في عداد البهائم والوحـــوش![1] غير أن ذلك قد يُحمَـــل على طبيعة الفكر في القرون الســـابقة. أمَّا الدراسات الحديثة؛ فإنها قد سلِمَت غالباً من تلك الآفات، اللهمّ إلا بعض الأقلام الهامشية غير الناضجة.

أمَّا من حيث تأثير الدراسات وقوّتها وضعفها:

فيمكـــن الجزم هنا: أن للدراســـات الفرنســـية والغربية تأثيـــراً طاغياً على إفريقيـــا ومجتمعاتها، بخـــلاف الدراســـات العربية، وهنا أيضـــاً لابد من المبادرة إلى تكرار ما ســـبقت الإشارة إليه من عدم التكافُؤ بيـــن الجهتَين من نواحٍ كثيرة، فالدراســـات الغربية مدعومةٌ بوســـائل تأثيرية أخـــرى كثيرة من غزْوٍ فكري، وسياســـات «العصا والجَـــزَرة»، وجنود مجنـــدَة لتنفيذ نتائجها وتحقيق أهدافها، من الأفراد والحكومات الخليفة للمستعمر... كل ذلك من العوامل الإضافية التي تضمن للدراسات الغربية تأثيرها في المجتمعات الإفريقية.

---

(١) ينظر: كاظم، نادر. ٢٠٠٤م. تمثيلات الآخر: صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر العربية، ٢٣٣.

سابعاً: مقترحات للسمو بالبحث في الدراسات الإفريقية في العالم العربي:

هذه بعض المقترحات، التي يؤمل منها أن تسمُوَ بالبحث في الدراسات الإفريقية في العالم العربي، وتزيد في جودتها وتأثيرها في التقارب بين إفريقيا وبين العالم العربي.

يمكن اتخاذ عدد من الخطوات لتقوية الدراسات الإفريقية العربية، ومنها:

أ- التنسيق والتعاون مع المؤسسات والجامعات الإفريقية (الإسلامية الحديثة):

وتلك نقطةٌ نحسبها سوف تكون مِفْصلية في تاريخ الدراسات العربية الإفريقية، إنّ معظم الجامعات الإفريقية الإسلامية الفتية غارقةٌ في تيهٍ منهجي حقيقي؛ بغُربتها الواضحة في مناهجها وبرامجها ومحتوى مساقات مقرراتها، فلا وجود- فيما نعلم- لمساقاتٍ في الدراسات الإفريقية بتلك الجامعات، أو ربطٍ لمحتوى دروسها في التخصُّصات الشرعية واللغوية والأدبية بالواقع الإفريقي. إن الاقتراب إلى تلك الجامعات؛ لَهُو أخذٌ بيدها من هذا التيه من جانب، ونقلةٌ نوعية بالدراسات الإفريقية من جانبٍ آخر؛ حيث إنها تضمُّ الأطر الشابة من الطلبة والباحثين الناشئين المنخرطين بصدقٍ في الفكر الإسلامي العربي، ومن الإمكان استحداث برامج للدراسات الإسلامية فيها، واعتماد نظام التخصُّص المزدوج.

ومن المراكز بإفريقيا: مركز البحوث والدراسات الإفريقية في السنغال، ومركز البحوث والدراسات الإفريقية (مبدأ) بمالي. وعلى الرُّغم من ضآلة معلوماتنا عن هذه المراكز؛ فإننا نحسبها حصناً يتيماً مرابطاً في مجال الدراسات الإفريقية.

ب- التقارب والتعاون مع الباحثين الأفريقانيين:

وذلك مع من يتصفون بدرجةٍ عالية من الإنصاف والموضوعية في بحوثهم ومواقفهم، وكثيرٌ من أولئك قد خدموا الدراسات الإفريقية الإسلامية خدمات جليلة، وبلغوا فيها شَأواً عالياً، أمثال: هيسكت Melvin Hiskett، صاحب الدراسات الرائدة عن الإسلام بنيجيريا[1]، ومورايّ لاسْت Murray Last، مؤرِّخ الخلافة الإسلامية بصكوتو، ومجتمعات هَوْسا المسلمة. و ج. هونْويك John Hunwick (ت.٢٠١٥م)، وهو رائد تاريخ إمبراطورية صونغاي، ومحقِّق الكثير من المخطوطات التمبكتية[2]، وكوبانْسْ[3] Jean Copans، وهو صاحب الدراسات حول الإسلام والطُّرق الصُّوفية بالسنغال، ونحيميا ليفتصيون[4] Nehemia Levtzion, d.٢٠٠٣، وسواريسْ Benjamin Soares رائد الدراسات الاجتماعية الإسلامية بمالي وبمجتمعات مانْدينغْ في غرب إفريقيا، ورائد الدراسات الأركيولوجية الإسلامية إنْصولْ Thimothy Insoll. وكثيرٌ من أولئك الباحثين كانوا من أشد المعارضين للطُّروحات الاستشراقية الاستعمارية.

بالمثل؛ يمكن التقرب إلى المراكز القلائل بإفريقيا، مثل: مركز الدراسات الإفريقية بجامعة أديس أبابا (إثيوبيا)، ومعهد كوامي نكروما بجامعة غانا، ومعهد بجامعة إبادانْ، ومعهد آخر بمدينة لاغوس (نيجيريا)، ومركز الدراسات الإفريقية بجامعة كيبْ تاوْن (جنوب إفريقيا)، وقد يكون من سُبل هذا التقارب إيفاد بعض الطلبة إلى هذه المراكز ■

---

(١) Hiskett, M. The sword of truth. New York: Oxford University Press, 1973, 16.

(٢) Hunwick, J. The Nineteenth Century Jihads: a Thousand Years of West A History, 1967.

(٣) Copans, Jean. Les Marabouts de l'arachide, Paris: L'Harmattan, 1980.

(٤) Levtzion, Nehemia. Ancient Ghana and Mali, Methuen, 1973.